الدكتور غسان سلامة

نقد الفكرة العربية من موقع التمسك بها

● الفكرة العربية انقض عليها التيار الديني فخطف جزءاً كبيراً من جماهيرها، والممارسات القطرية فجردتها من كثير من شرعيتها، والعولمة فأظهرتها وكأنها فكرة متخلفة ● في القرن الـ ٢٠ كان التيار العروبي في بعض تجلياته أقل التيارات سوءاً إن لم يكن أحسنها... وشخصية جمال عبد الناصر هي الشخصية العربية الأبرز، وتجربته أفضل بكثير من تجارب أخرى عرفناها ● هناك ضحالة عربية في مجال إنتاج الفكر الديمقراطي ● هناك دول عربية عرفت انفتاحاً ديمقراطياً في السنوات الأخيرة ولم تتطور الأفكار القومية فيها.. وهذا تحد إضافي للقومية العربية ● نحن نتأفف كثيراً من عدم تضامن الأنظمة العربية مع الانتفاضة الفلسطينية ولكن الالتفاف الشعبي حولها بدوره ضعيف للغاية ● الإنتاج الغربي عن العرب أفضل وأكثر موضوعية من الإنتاج العربي عن الغرب.. ونحن اليوم بحاجة إلى استغراب بمستوى الاستشراق ● أرى كثيراً من المفكرين العرب يدخلون في سياق الانبهار بالعامل الثقافي ويظهرون أحياناً وكأنهم يتبنون أفكار خصومهم ● حصل انفصال بين التحديث والتغريب... والغرب لم يعد يرى مصلحة له في تشجيع الحداثة في الحضارات الأخرى ● الفراغ الذي تركه انحسار الماركسية لا يطال الماركسية وحدها ● نظريات هانتنغتون وتصريحات بن لادن تشير إلى عودة إلى أفكار العصور الوسطى وإلى نوع من العنصرية الجديدة.

الدكتور غسان سلامة صاحب واحدة من أطول ـ أو بالأحرى أكثف ـ السير الذاتية بما تحتويه من «نشاطات مهنية» و«مؤهلات علمية» و«لغات يجيدها»... والنصيب الأكبر في هذه السيرة للكتب والأبحاث والمقالات والمحاضرات التي ألفها وألقاها ونشرها والتي ساهم فيها (١٣ كتاباً ـ ٢٧ فصلاً في كتب ـ ٥٣ مقالاً في الشهريات والدوريات باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية...).

نعم هو وزير الثقافة في حكومة لبنان... بل هو من أكثر وزراء الثقافة في الوطن العربي إثارة للجدال حول آرائه وأفكاره بشأن أمور الثقافة والسياسة الداخلية والخارجية، وفي مقدمتها ما يتعلق بمواقفه النقدية في الشأن العربي.. نلتقي به كمفكر بارز بين المفكرين المتمسكين بعروبتهم بواقعية ونقد.. إنه من أكثر المفكرين العرب في الوقت الحاضر حيوية وديناميةً، ليس فقط باتساع نطاق معرفته العلمية والثقافية ومنهجيته، إنما أيضاً بطموح رؤاه ومشاريعه.

الواقع أنه هنا لا يحتاج إلى تقديم. حديثه ـ في هذا اللقاء ـ يقدمه بموضوعية وبالتفصيل.

■ **باعتبارك من أبرز ممثلي الفكر القومي الجديد الواقعي أو النقدي وقد وافقت على هذا التحديد منذ أكثر من عشر سنوات، وأشير هنا إلى «ندوة الوحدة العربية: تجاربها وتوقعاتها» ـ صنعاء ١٩٨٩، فإلى أين أخذتك السنوات منذ ذلك الوقت، نحو تأكيد حتمية استيعاب القومي للقطري، أو تراجع القطري تجاه القومي نحو واقع جديد؟**

غسان سلامة: في الحقيقة أن الفكرة العربية تمر بأزمة خانقة، إذ انها تآكلت من كل الجوانب، بعد أن كانت قد بدت منذ منتصف القرن العشرين، مع ثورة تموز/يوليو ١٩٥٢، وحزب البعث وقيام حركة القوميين العرب، ومع شيوع الفكرة العربية على المستوى السياسي، في تلك الفترة كانت هذه الفكرة خطوة المستقبل، إنما علينا الاعتراف بأنها في نصف القرن الماضي قد تآكلت بطريقة واسعة جداً، بحيث باتت هامشية على الساحة العربية.

الفكرة العربية انقض عليها التيار الديني فخطف منها جزءاً كبيراً من جماهيرها، وانقضت عليها الممارسات القطرية فحرمتها من كثير من شرعيتها. وانقضت عليها أيضاً أفكار العولمة مؤخراً فأظهرتها وكأنها فكرة متخلفة بدائية، وبالتالي فإن الفكرة العربية التي نشأت في النصف الأول من القرن العشرين، وتجسدت سياسياً بأنظمة وتيارات سياسية متكاملة في النصف الثاني من القرن العشرين، تبدو اليوم وكأنها ضحية نشوء الدول العربية واستمرارها والنمو الواسع للتيار الديني وسيطرة العولمة على الأفكار وعلى الممارسات..

أنا لا أدّعي فخراً لكنني منذ نحو عشرين عاماً بدأت أقول إن الفكرة العربية في أزمة، وبأنها في مرحلة تآكل، وكنا كثراً في الساحة العربية نشعر بهذا الهبوط المريع في موقع الفكرة العربية في الساحة العربية، لكن الذي حصل هو أن أكثرية المثقفين هجروا الفكرة بعد أن لاحظوا تآكلها، قالوا إنها لم تعد ذات قيمة وهجروها، إلا بعض القدامى الذين حافظوا عليها من باب الأمانة والوفاء لها، لأنهم كانوا متعلقين بها بشبابهم وحافظوا عليها بكهولتهم، ولكن دون أن يستطيعوا أن يعبئوا لها أجيالاً جديدة. نحن كنا نقول هذا الكلام منذ مطلع الثمانينيات، كنا نقول إن الفكرة العربية بأزمة، قد تكون أزمة قاتلة، لكن

كنا نجابه آنذاك، ولم أكن وحيداً، إنما كنا مجموعة من المفكرين، كنا نجابه بنوعين من ردود الفعل، أكثرية الناس كانوا يقولون «كفوا عن الترحم على نفس المرحومة الفكرة العربية، لأنها توفيت، فأوقفوا الندب عليها، أو لا تتوقفوا عند أطلالها، فهي ذهبت كما أتت». وهناك أقلية كانت تنتقد، كما حصل في ندوة الوحدة العربية في اليمن، أو في مؤتمر الجامعة العربية في تونس قبلها بعشر سنوات، كانت تنتقد لتقول «لا تمسوا بالفكرة العربية، ولا نقبل أن يقول أحد إنها بأزمة خانقة». نحن كنا نرى هذا الأمر، وربما كانت لدينا الشجاعة الأدبية، أولاً لكي لا نتخلى عن الفكرة العربية لمجرد هبوط سعرها في البورصة كما حصل مع كثيرين، وكانت لنا الشجاعة لكي نواجه الغيارى عليها بأن نقول لهم إنها بأزمة رغم ما تقولون.

الواقع أن العشرين سنة الماضية لم تسمح بأن تطرح الفكرة القومية بطريقة إيجابية، حصلت محاولات تقارب مع التيار الديني أحياناً، حصل نوع من التأليف أو التوليف بين الفكر القطري والفكر القومي بطريقة بدائية في معظم الأحيان، جاءت أحداث كثيرة لتزيد من أزمة الفكرة العربية ولا سيما من خلال الامتناع المدهش لدى عموم العرب عن دعم شعب فلسطين في العشرين سنة الماضية، إن كان في انتفاضته الأولى أو الثانية، وجاءت أحداث الكويت لتزيد من ترهل فكرة الانتماء العربي، ولم يكن أي تيار في الواقع يحاول أن يستفيد من هذه التجارب المريرة على تكرارها لكي يعيد الاعتبار، أو يعيد المضمون للفكرة العربية. ونحن اليوم في مطلع قرن جديد وأنا لا أرى نهضة للفكرة العربية، أو قيامة لها من المحيط إلى الخليج في المرحلة الحالية، لا أرى ذلك على المستوى الفكري، ولا على أساس المؤسسة العربية، ولا على المستوى الشعبي. فهل نقف عند هذا الحد؟ أنا لا أقف عند هذا الحد، بل أقول إنه علينا أن نشخص سبب هذا الانهيار المريع، وأن نبحث عن أسباب وجود جديدة للفكرة العربية. وأعتقد أنه من أكثر الأسباب جدية بانهيار الفكرة العربية هو اعتبار أن الأمة العربية موجودة عبر التاريخ من الأزل حتى الآن. فالأمم مثل الدول، مثل كل الأمور الأخرى، هي من صنيعة الشعوب. فالشعوب هي التي تقرر، فالفكر هو الذي ينتج الأمة، وليس الأمة هي التي تنتج الفكر. إذا عجز القوميون العرب عن إنتاج الأمة العربية فهذه مشكلتهم وليست مشكلة الأمة العربية، لأن الأمة هي نتاج لفكر، هي ليست معطى موجوداً عبر التاريخ.

الفكر القومي العربي انطلق من القاعدة المعاكسة، كما معظم الفكر القومي في القرن التاسع عشر، من فكرة أن الأمة موجودة بالهيولى ويجب إيجادها في الواقع، فهي مشروع سياسي، وبالتالي فإن الفكرة العربية قابلة للعيش مجدداً، إن انطلقنا من فكرة أنها منتج بشري وليست معطى دائماً أبدياً، هي نتيجة توافق بين الناس على اعتبار أنهم ينتمون إلى جماعة واحدة اسمها الأمة العربية، وهذا هو سبب الاختلاف الأساسي بين نظرتنا إلى القومية ونظرة القوميين **التطبيقيين** الذين يعتبرون الأمة معطى دائما يجب فقط تحقيقه على الأرض. أنا أقول إن الفكرة العربية هي مشروع جديد وحديث لم تكن قائمة قبل القرن العشرين، هي أنتجت من قبل مفكرين معينين وتيارات سياسية، وهذه الفكرة هي الآن في حالة قريبة من الزوال، فهل نسهم في زوالها، أم نسعى لإحيائها؟ أنا طبعاً أدعو لإحيائها، لأسباب كثيرة، السبب الأول والأساسي هو أن تيار العولمة يبرر تيار الأقلمة، بمعنى أن تيار العولمة المستمر لا يسمح للكيانات الصغيرة بأن تتحرك بحرية في المجتمع

الدولي الذي ينشأ أمام أعيننا، وبالتالي فإن هناك مصلحة للكيانات الصغرى بأن تندمج اقتصادياً وسياسياً إلى حد كبير في مجتمعات أكبر لكي تتمكن من الدخول في العولمة بطريقة مفيدة لمصالحها، وأيضاً لأنه إذا نظرنا إلى الوراء، ورأينا مختلف التيارات السياسية التي عصفت بالعرب خلال القرن العشرين يمكن القول إن التيار العروبي في بعض تجلياته كان أقل التيارات سوءاً، إن لم يكن أحسنها. من دون أي شك برأيي، ان شخصية جمال عبد الناصر هي الشخصية العربية الأبرز في القرن العشرين، وهي الشخصية التي أنتجت سياسة ونظاماً على علاّتها الكثيرة، ولا سيما في مجال الديمقراطية وفي مجال حقوق الإنسان، لكن على الرغم من ذلك هي تجربة أفضل بكثير من تجارب أخرى عرفناها خلال القرن العشرين، وبالتالي فإن إحياءها ليس ضرباً من الخيال، وإنما إعادة اعتبار لمرحلة مشرقة نسبياً من التاريخ العربي خصوصاً إذا قورنت بتجارب وتيارات أخرى. أما السبب الثالث فهو لأن الأجيال العربية الجديدة بحاجة إلى معايير وإلى عودة السياسة إلى أوساطها، إذ إنها أخذت ذات اليمين وذات الشمال، باتجاه الانكباب الأعمى بالعولمة، أو باتجاه التيارات الدينية التي وصلت برأيي إلى حدها الأقصى مع عملية ١١ أيلول/سبتمبر، أو باتجاه الانصراف عن العمل السياسي والتفكير السياسي، وهي بالتالي بحاجة إلى إطار مفهومي تعيد بناء ذاتها من خلاله، وهذا الإطار المفهومي أنا شخصياً ما زلت أراه مبنياً على الوحدة العربية كفكرة ومؤسسة، إنما كما سمعت مني فإنها فكرة مختلفة جوهرياً عن الفكرة القومية التقليدية، وبالتالي فالمعركة طويلة وصعبة لأن عليها أولاً أن تتمايز من التيارات الحالية الغالبة، إن كانت عولمية، أو قطرية أو دينية، وعليها في آن معاً أن تتخلى عن جل الفكر القومي العربي التقليدي لأنه لم يعد في الحقيقة نافعاً بعد تجربته في عدد من الأنظمة والتيارات السياسية التي أبرزت ضحالتها في العقود الثلاثة الماضية.

■ **نأتي إلى موضوع الديمقراطية، إلى أي حد برأيك يعتبر غياب الديمقراطية في أقطار الوطن العربي مسؤولاً عن تأخر المسار القومي الوحدوي؟ بالأحرى هل يبدو مستقبل التناول القومي أفضل إذا تحسن الأداء الديمقراطي في الدول العربية؟**

غسان سلامة: نعم ولا، هناك دول عرفت انفتاحاً ديمقراطياً في العشر سنوات الأخيرة، ولم تتطور الأفكار القومية فيها على الرغم من ذلك، يعني حصل انفتاح ديمقراطي من دون أي شك في العشر سنوات الأخيرة في العديد من الدول العربية، في المغرب، في الجزائر، في اليمن وغيرها، ولم يؤد ذلك إلى نمو الفكرة العربية في هذه المجتمعات، وهذا تحد إضافي للقومية. صار هناك انفتاح سياسي وثقافي، ولماذا لم تتطور الفكرة العربية؟ خذ مثلاً موضوع التضامن مع الانتفاضة الفلسطينية، نحن نتأفف كثيراً من حيث عدم تضامن الأنظمة مع هذه الانتفاضة، ولكن أنا أقول إن الالتفاف الشعبي العربي حولها ضعيف للغاية، لأنه كان أقوى في الأسابيع الأولى للانتفاضة مما حصل لاحقاً، وذلك ليس بسبب موقف الدول، ليس هناك ما يمنع من قيام تظاهرات تأييد للانتفاضة في معظم الدول العربية، إذاً المشكلة أعمق من الأفكار البالية التي تقول إن الأنظمة هي التي تمنع الناس من التضامن العربي أو الاتفاق العربي، المشكلة أعمق.

في الواقع ان الديمقراطية أمران مختلفان: الديمقراطية هي أولاً كل ما يتعلق بالحريات، حرية الرأي، التعبير، الفكر وما شابه. وهي ثانياً مؤسسات الديمقراطية القائمة

على الاختيار الحر للزعماء والطبقة السياسية، وعلى معاقبة الزعماء انتخابياً بحال لم يسيروا في الاتجاه الصحيح. الأمران مختلفان، وما حصل في الوطن العربي خلال العشر سنوات الماضية هو تطور ملحوظ وسريع في الجزء الأول، أي في انتشار الحرية والفكر والرأي والتلفزيونات الفضائية واستعمال الانترنت والتعبير وكل ما شابه، ولكن لم يحصل تطور موازٍ في مجال إرساء المؤسسات الديمقراطية، يعني حصل تنفيس في مجال التعبير عن الرأي، لكن لم يحصل تطوير لعمل مؤسسات الديمقراطية.

استعيد عنواناً من كتاب لي لاقى قدراً كبيراً من الرواج وترجم لأكثر من لغة، ومنها إلى العربية لأنه وضع أساساً بالإنكليزية، بالاشتراك مع مجموعة من الاخوان، وهو **ديمقراطية من دون ديمقراطيين**(*)، قلنا فيه إن الديمقراطية أنشئت في كثير من الدول العربية ولكن دون وجود تيارات ديمقراطية فعلاً تدافع عنها، وبالتالي كما أن هناك ضحالة عربية في مجال إنتاج الفكر الديمقراطي هناك أيضاً ضحالة في مجال إنتاج الفكر العروبي الجديد. معظم العروبيين السابقين انكفأوا عن الفكرة العربية بدلاً من أن يعالجوا أسباب تخلفهم، وانتقلوا إلى تيارات أخرى ليبرالية أو دينية أو ما شابه، وأيضاً الديمقراطيون استقبلوا الديمقراطية واستفادوا من حرية الرأي المستباحة من قبلها دون أن يسهموا فعلاً في تأصيلها من خلال الدعوة إلى إرساء مؤسسات متينة تحتضنها وتدافع عنها وتؤدي إلى استمرارها.

أنا في الواقع أشهد كسلاً مرعباً في الثقافة العربية، فعندما أسمع المثقفين العرب يتبجحون بدور المثقف، أسأل أين هم المثقفون؟ أين هم العروبيون؟ وأين هم الديمقراطيون؟ في هذه المعمعة، أين هم؟ نسمع كلاماً كثيراً عن تهميش المثقف العربي، من يهمشه؟ فلو كان المثقف العربي في هذا الوضع من الإبداع والإنتاج والتفكير الحر، لكنا لمسنا ذلك ولم يكن باستطاعة أحد أن يهمشه. الواقع أن هناك تدنياً ملحوظاً في مدى الإبداع الفكري العربي، وهذا يمس الفكر الديمقراطي، كما يتأثر الفكر العربي. ولا نرى أن من النادر أن نقع في المرحلة الأخيرة على مفكرين عرب نتوقف أمامهم، ومن النادر أن نتوقف أمام كتاب عربي يثير فعلاً إشكالية حقيقية عن المجتمعات العربية، ومرد ذلك إلى أمرين: **الأول** هو عملية قطع رأس الوحدة العربية من خلال هجرة واسعة لأبنائها نحو المجتمعات الأخرى، وهناك، دون أن أُضعف من قيمة أحد، ان جل المفكرين العرب حالياً يعملون بلغات أخرى وداخل مجتمعات أخرى ويؤثرون فيهم، ويؤثرون أحياناً في مجتمعاتهم الأسرية، ولكن بعد حين وبطريقة هامشية، ونحن حالياً ندفع ضريبة هجرة آلاف مؤلفة من المثقفين العرب والمجتمعات الأخرى بسبب القمع السياسي وبسبب الضائقة الاقتصادية، نحن ندفع ضريبة هائلة، فاتورة ضخمة لهذا. أما السبب **الثاني** فهو نوع من الاستسهال الذي نراه في كثير من الإنتاج الثقافي العربي. وأنا أصاب بالهلع عندما يذكر اسم مثقف بأنه كتب حوالى أربعين كتاباً بعمق، فهذا كلام فارغ، أو أننا أمام شخص يظهر يومياً على شاشات الفضائيات العربية، فهل هذا هو معيار المثقف والثقافة؟

■ **كيف ترى حال الثقافة العربية اليوم؟ أين تزدهر وأين تختنق؟ وهل هي دالة ديمقراطية أو انعدام للديمقراطية في الوطن العربي؟**

غسان سلامة: حرية الرأي في الوطن العربي اليوم مقارنة مع ما كانت عليه منذ

(*) إصدار مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت)، ١٩٩٥، طبعة ثانية ٢٠٠٠.

عشر سنوات تقدمت إلى حد كبير، وأنا لست متشائماً. فمنذ عشر سنوات لم تكن هناك فضائيات عربية يتحدث عبرها كل واحد كمن يغني على ليلاه، ولم يكن هناك في كثير من الدول العربية صحف ومجلات يمتلكها أفراد، لم تكن هناك إذاعات قابلة لأن تدخل إلى أي مكان، ولم يكن هناك تمكن عند الأفراد من خلال الانترنت أن يدخلوا إلى الصحافة العالمية التي كانت ممنوعة عليهم بسبب الرقابة في بلدانهم. إن قيام بعض الدول العربية اليوم بممارسة بعض أشكال الرقابة يثير الضحك، يكفي أن يمنع كتاب لكي يتم تداوله بسرعة، يكفي أن تمنع أغنية لكي تصبح الأشرطة في كل بيت، يكفي أن يمزق مقال من جريدة لكي يتم تداوله مطبوعاً من خلال الانترنت، لذلك ممارسة الرقابة أصبحت نوعاً من العبثية.

هذا خبر جيد بالنسبة إلى المثقف العربي لأنه تفوق على الرقيب، وشكراً للتكنولوجيا التي قضت على الرقيب لمصلحة المثقف. فالمثقف العربي اليوم يتمكن، إن هو شاء، من أن يطلع على كل صحافة العالم وكل تلفزيونات العالم، ومن أن يتجاوز الرقيب ويضعه جانباً ويضحك عليه. ان قدرة الحكومات على ممارسة الرقابة هي في تساقط مستمر، وأنا أصفق لهذا الأمر رغم أنني وزير الثقافة حالياً، وأنا منشرح تماماً لتضعضع وضع الرقيب في كل الدول التي تمارس الرقابة.

قلنا هذا الكلام، ولكن هذا الكلام له ثمن كبير، كل الحرية لها ثمن، وهذا الثمن هو المسؤولية، بمعنى أن الحجة الطبيعية الرائجة للمثقف العربي قوله أنا غير قادر على الانطلاق، أو غير قادر على النشر لأن الرقيب يمنعني من ذلك، هي حجة واهية. اليوم إذا كان لديك ما تقوله فأنت قادر على أن تقوله. وهذا لم يكن ممكناً ربما منذ عشرين عاماً، إنما اليوم هو ممكن، وهذه الحجة التي استعملت مراراً وتكراراً من قبل المثقفين العرب لتبرير ضحالة إنتاجهم، أو لتبرير فقر اطلاعهم، لم تعد حجة مبررة، إذ ان سقوط الرقيب يسقط المثقف معه لأنه يعرّي المثقف من حجته القديمة.

المشكلة اليوم لم تعد في القهر الذي يتعرض له المثقف، بل أصبحت في نوعية الإنتاج الذي يضعه المثقف. فعلى المثقف أن يقدم على عمل يوازي التوسع الهائل في الهامش المتاح له. هناك هامش كان ضيقاً، وأصبح واسعاً بلا حدود. أصبح الجدل الحقيقي ليس على وجود الهامش بل على مضمونه.

أقول إن التحدي أمام المبدع العربي أكبر بكثير اليوم من الرقابة، فعلى المثقف أن يثبت أنه مطلع. وأنا كوزير للثقافة في لبنان أحاول أن أفتح الميادين أمام الأجيال الجديدة لكي تعبر عن نفسها، وأسهم في إنتاج الأفلام لمخرجين جدد، أسهم في فتح المكتبات في كل بلدة فيها عشرة آلاف نسمة، أسهم في التعليم على الانترنت وفي توزيع أجهزة الڤيديو على القرى النائية، ولكن بالمقابل آمل أن يخرج من هذا المجتمع عدد من المبدعين لكي أدافع عنهم، لكي أعوْلمهم، لأنني أعتقد أن وظيفتي كوزير للثقافة هي أن أعوْلم أي إنتاج ثقافي عربي راقٍ، فإذا أنتج العرب فكراً راقياً وأغنية راقية فإن دوري ليس الاحتفاظ بها ومصادرتها، بل دوري، كمسؤول عن الثقافة في هذا البلد، هو أن أعوْلمها، أي أن أدخل في مسيرة العولمة إنتاجاً عربياً ثقيلاً يضاهي إنتاج الآخر، أي أن أثبت للثقافات الأخرى أن الثقافة العربية ما زالت تنافسية، ومبدعة ومنتجة وتبحث عن نوعية عالية.

■ **الغرب متهم في بعض إعلامنا بالجهل بنا.. الجهل بتاريخنا وثقافتنا وقدراتنا.. وباعتبارك واحداً ممن اطلعوا على اطلاعات الغرب ومعرفته**

بالحضارة العربية الإسلامية، وكذلك بالإسلام والمسيحية في الشرق، ما رأيك في هذا الاتهام؟ وما رأيك في عواقب هذا الاتهام على أدائنا في عملية إدارة الصراع الفكري والسياسي مع العالم الغربي، ثم ما رأيك في مدى معرفتنا ـ مدى فهمنا ـ نحن العرب للغرب؟

غسان سلامة: أولاً، الغرب أغراب، أي هناك مستوى شعبي غربي أحياناً يجهل الكثير عن الشرق، ومن دون شك في أن معرفة الأوروبيين بالعالم العربي والإسلامي أفضل بكثير من معرفة الأمريكيين على المستوى الشعبي، ومدى اهتمامهم أيضاً أكبر من اهتمام الأمريكيين، ذلك أنني لا أريد أن أُجمل فأقول إن الغرب جاهل إجمالاً. هناك غرب عالم وغرب جاهل، وهناك مدى اهتمام أكبر ومعرفة أكبر في أوروبا منها في أمريكا، وذلك بسبب القرب الجغرافي، وبسبب التجربة الاستعمارية التي علمت الكثير من الأوروبيين عن شعوبنا، فيما لم يتسن ذلك لكثير من الأمريكيين، لذلك أنا لست من الذين يقولون إن الغرب يجهلنا، وبماذا نقيس ذلك؟ نقيسه بمستوى الكتابات والمقولات الغربية عن الشرق مقابل بما نبغي أن تكون عليه، هذا معيار، ولكن هناك معياراً آخر، وهو مقابلة الإنتاج الغربي عن العرب بالإنتاج العربي عن الغرب، إذاك يمكن أن أقول، وضميري مرتاح، إن الإنتاج الغربي عن العرب أفضل بكثير، وموضوعي أكثر، وأكثر عمقاً وأقل استسهالاً من الإنتاج العربي عن الغرب. وعندما تنظر إلى حجم الدراسات الاجتماعية والثقافية واللغوية التي أنتجها الاستشراق بشكله القديم، أو بشكله الحديث عن المجتمعات العربية على علاّت الاستشراق الكثيرة وعلى استعمال جزء من هذا الاستشراق في عمليات السيطرة السياسية، فإنه يظل أفضل بكثير مما أنتجناه نحن كعرب عن الحضارات الأخرى. أقول هذا بالذات لأن الاستشراق خدم المصالح الغربية، ليس هناك من جدل على الإطلاق بأن الاستشراق كان مفيداً ككم علمي ومفهومي لنشاطات الدول والشركات الغربية الكبرى، بل انها موّلته وساعدته ودعمته بهدف مزيد من التعرف إلى مجتمعاتنا وتاريخنا واقتصادنا. وأنا لا أشك بذلك على الإطلاق، وبالتالي فإن نظرية ادوارد سعيد الشهيرة بأن الاستشراق جزء من الهيمنة الغربية على بلداننا نظرية مقبولة، وليست خاطئة، إنما هي نظرية جزئية، لأن الجزء الآخر الضروري في هذه النظرية هو أنه لأن هناك فائدة عملية من الاستشراق، فائدة سياسية أو اقتصادية، للدول والمجتمعات الغربية، فهناك اهتمام غربي بأن تكون هذه الدراسات على مستوى عالٍ، فالناس يتوقعون من المستشرق الألماني أو البريطاني أو الفرنسي أن يكون مستشرقاً عالماً بما يكتب عنه لأنهم بحاجة إلى علم لكي يستعملوا هذا العلم في عملية الدفاع عن مصالح الغرب وعن تطوير اقتصاده وعن مصالحه ونموه ونفوذه السياسي. وبالتالي، بالذات لأن الاستشراق جزء من مشروع الهيمنة فإنه على مستوى عالٍ من الجودة، وهذا الأمر الذي ربما لم يهتم به إدوارد سعيد، لأن الغرب يعطي وظيفة اقتصادية وسياسية واجتماعية كبيرة للاستشراق، فهو مصر على أن يكون هذا الاستشراق جيداً من الناحية الموضوعية. وبالتالي فإن معرفة الغرب بنا أفضل بكثير من معرفتنا به. فنحن نسوح بالغرب، نضع رساميلنا هناك، ونرسل أولادنا للتعلم في جامعاته، ولكن بالمقابل عندما أسمع السياسيين والمفكرين والكتاب يكتبون عن الغرب نراهم يلتجئون إلى مقولات ايديولوجية خفيفة لا تعطي صورة لا عن تعقل هذه المجتمعات، ولا عن ثرائها، ولا عن ثقافتها الحقيقية. لذلك نحن اليوم بحاجة أكثر من أي وقت مضى

إلى استغراب بمستوى الاستشراق، أي إلى معرفة بالغرب تطابق معرفة الغرب بالحضارة العربية. وأنا أقول إن هذا ليس عائداً إلى جهل الغربي بنا إنما لعدم قيامنا بمعرفة الغرب بصورة كافية لكي نقوم بالتأثير في مصادر المعلومات التي لدينا، لكي لا نسهم في تحسين معرفته بنا، فإذا كان لدينا ما نقوله للغربيين غير ما يقوله المستشرقون لهم فعلينا أن نعمل على ذلك. هناك وهم مقيم لدى جزء من نخبنا بأننا فعلاً نستطيع أن نأخذ كافة منتوجات الحداثة ولكن ليس علينا أن نتساءل عن القيم التي سمحت لبعض المجتمعات بأن تنتج هكذا منتوجات. أعتقد أن هذا التحدي هو تحد أساسي في مطلع هذا القرن الجديد. علينا فعلاً أن نفهم أنه ليس بوسعنا أن نأخذ منتوجات الأقمار الصناعية ومنتوجات التلفزيونات الفضائية، ومنتوجات الهواتف النقالة.. كل هذه المنتوجات، ونفصلها عن القيم الحديثة التي سمحت بالنهوض، وإلا نبقى في وظيفة المتلقي والمستهلك، أي ننتظر لكي يتمكن الغرب أو الشرق الآسيوي من إنتاج منتج حديث فنشتريه منه ونستعمله، ولكننا لن ننتقل إلى موقع المنتج إلا إذا كسرنا هذا الوهم القائم على فكرة أنه بإمكاننا أن نأخذ من الحداثة منتوجاتها دون أن نتبنى قيمها.

في الشرق الآسيوي فهموا ذلك وكسروا هذا الوهم، جميعهم استوعبوا فكرة أساسية وهي أن الحداثة كل متكامل لا تؤخذ فقط منتوجاتها دون أن تؤخذ قيمها، وبالتالي أصبحوا في خانة المنتجين أو المشاركين للغرب في إنتاج هذه الحداثة. وهذا تحد كبير سيسمح لنا بأن نفهم الغرب أكثر، لأننا اليوم في مرحلة بالواقع معرفة الغرب بنا أفضل من معرفتنا به، ومعرفة أمريكا بأفغانستان أفضل بكثير من معرفة الأفغان بأمريكا.

■ **على الجانب السياسي من الصورة أطلق بعض الكتاب والسياسيين على الحملة العسكرية الأمريكية بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر وصف الحرب العالمية الثالثة، هل تعتقد أن أمريكا هي بالفعل بصدد حملة متسعة لتشمل العالم، وهنا نعني العالم الثالث، وفي ضوء معرفتك بأمريكا هل تعتقد أن الرأي العام الأمريكي مستعد لمواصلة تأييد استراتيجية انتقامية كهذه حتى بعد خفوت رغبة الانتقام رداً على ما حدث في أيلول/سبتمبر؟**

غسان سلامة: مفهوم الحرب العالمية الثالثة مفهوم تلفزيوني فقط، فالحرب العالمية الأولى أو الثانية هي حروب مات فيها ملايين، بل عشرات من الملايين من البشر، ودخلت فيها دول جديدة، وأنا أفضل تسميتها أولى حروب القرن، لأن هذه الحرب لا تقارن بحرب عالمية على الإطلاق، إذا نظرت إلى القوى المتصارعة فيها، فهي قوى ضحلة، وقليلة، والعالم كله يقف متفرجاً أمام ما يجب اعتباره عملية شرطة. هناك منطق سينما الغرب الأمريكي (Western Movie)، حيث إن شقياً قام بعملية غير مقبولة، فقام الشرطي بملاحقته إلى حيث التجأ، وأبناء القرية الكونية يتفرجون على ملاحقة الشرطي للشقي كالمتفرجين في دور السينما، بعضهم يتمنى للشقي أن يتحدى الشرطي، وبعضهم الآخر يدعم الشرطي ويتمنى له أن ينتصر، ولكن هذه ليست حرباً عالمية على الإطلاق، فألفان أو ثلاثة آلاف مقاتل مقابل عملية شرطة أمريكية في أفغانستان... هذه ليست حرباً عالمية.

الحقيقة أن هذه الحرب أثارت في الولايات المتحدة داخل الإدارة جدلاً عميقاً، وأنا طبعاً لا أعتقد لحظة واحدة أن هذه الحرب كما تمت خطط لها في أمريكا قبل ١١ أيلول/سبتمبر، ولا أعتقد أن الأمريكيين يقومون بهذه الحرب للسيطرة على نفط وغاز منطقة

قزوين، وأنا متأكد من أنهم لا يقومون بهذه الحرب لهذا الهدف، لسبب بسيط وهو أنهم كانوا يسيطرون على نفط وغاز بحر قزوين قبل أن تتم عملية ١١ أيلول/سبتمبر. الذين يقولون هذه المقولة لا يعرفون مدى تغلغل الشركات الأمريكية النفطية والغازية في أذربيجان وكازاخستان وغيرها من المناطق الغنية بالنفط والغاز، ولا أحد يمنعها من ذلك، وحتى إنه كان هناك مشروع لنقل غاز تركمانستان إلى باكستان عبر أفغانستان بالتوافق مع الطالبان. ان منطقة قزوين ليست قريبة من أفغانستان، هذا أولاً. ثانياً، في ما يخص منطقة قزوين ومنطقة آسيا الوسطى التي هي أقرب إلى أفغانستان، ولا سيما كازاخستان وتركمانستان، فإن الوجود الاقتصادي الأمريكي والإسرائيلي كثيف للغاية، بل انه يجب تقدير ما قامت به الإدارة الأمريكية في السنوات العشر الأخيرة من إنجاز واسع من وجهة نظرها، حيث تمكنت هذه الإدارة بعد تفكك الاتحاد السوفياتي من تحقيق إنجازين كبيرين في هذه المنطقة: **الأول** هو نزع السلاح النووي من كل الدول التي انفصلت عن الاتحاد السوفياتي وتركيزها في يد روسيا فقط، حيث نزع السلاح النووي من كازاخستان وأقفلت القواعد في غير مكان حتى في أوكرانيا وغيرها من الدول لكي تتركز فقط في يد روسيا. والهدف **الثاني** دخول الشركات الأمريكية والغربية إلى منابع النفط في تلك المناطق، وهذا أيضاً تحقق إلى حد كبير قبل ١١ أيلول/سبتمبر. إذاً هناك تفرد أمريكي بالتخطيط وبالتنفيذ في أفغانستان وفي عدد من الأماكن في العالم. وهذا لا يشير إلى هدف اقتصادي، بل يشير إلى نوع من الرد على ضرب الهيبة الأمريكية الذي حصل في عملية ١١ أيلول/سبتمبر، وإلى إرسال الرسائل الواضحة للعالم أجمع، للأصدقاء قبل الأعداء، وللحلفاء قبل الخصوم، بأن الولايات المتحدة لم تزل لديها ذراع عسكرية قادرة، وهي قادرة على الانتقام من الذين يمسون أمنها وبالتالي قادرة على استرجاع هيبتها وعلى معاقبة كل من يمس تلك الهيبة. هذا مسلك القطب الأوحد في النظام الحالي، ولكن ليس هناك على الإطلاق ما يدعو للاعتقاد بأن التراخي والاستسهال تجاه هذا المسلك، ومن قبل الدول الأخرى كروسيا أو الصين وحتى الدول الأوروبية، أن هذا الاستسهال، هذا القبول، هذا الرضوخ لمنطق التفرد بالقرار في أفغانستان سيستمر إلى ما لا نهاية، هذا مقبول حالياً طالما أن هناك عملية عقاب للشقي الذي قام بعملية نيويورك، إنما أن تتوسع الحرب، وهذا جوهر سؤالكم، تتوسع إلى أهداف أخرى، آنذاك تصبح مسألة مختلفة.

الجدل قائم داخل الإدارة الأمريكية، والجدل قائم على فكرة قديمة، وهي أنك إذا كنت تريد تحالفاً واسعاً فأنت بحاجة إلى هدف محدد، أما إذا تعددت الأهداف، فإن التحالف سيتقلص بالضرورة، يعني مثلاً إذا كان الهدف فقط الطالبان، فإيران قد تكون إلى جانبه، لأن إيران على خصام مع الطالبان، أما إذا كنت تمس بحزب الله، أو بعناصر أخرى، فإنك تفقد إيران في هذا التحالف. الواقع أن تسجيل النقاط في أفغانستان بسهولة أراح التيار المتشدد في الإدارة الأمريكية، وبعد أن كان هذا التيار ضعيفاً في بداية الحرب، خلال شهري أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/اكتوبر رأينا أنه بدءاً من شهر تشرين الثاني/نوفمبر، ومع تسجيل النقاط المتتالية لتحالف الشمال وللقدرة العسكرية الأمريكية في أفغانستان، رأينا التيار المتشدد يقوى داخل الإدارة الأمريكية، حتى بات يسيطر عليها. وباتت الولايات المتحدة أكثر تطلباً من حلفائها، وأكثر تنويعاً في أهدافها في المنطقة. نحن نعيش في هذا الجو، وأعتقد أننا شهدنا في المرحلة الأخيرة نمواً للتيار المتشدد الذي يريد أن يستفيد من حادثة أفغانستان

للقيام بتحقيق عدد من الأهداف الجانبية التي لا علاقة لها بأفغانستان، وهذا طبعاً ما تسعى إليه إسرائيل، وبالتالي يمكن حتى الساعة، وبانتظار انقلاب في الموقف الأمريكي، لكن حتى الساعة يمكن اعتبار إسرائيل من كبار المستفيدين من حرب أفغانستان، لأنها تمكنت من إعادة إنتاج حرب أفغانستان على أرض فلسطين، باعتبار أن كل فتى فلسطيني هو «بن لادن» صغير، إن لم يكن بالحقيقة إنما بالقوة، أو أنه قد يصبح «بن لادن» صغيراً، وبالتالي فإن إسرائيل هي الدافع الأكبر داخل الإدارة الأمريكية، وهي الداعية إلى توزيع الأهداف وعدم الاكتفاء بحركة طالبان وإنما محاولة المس بدول أخرى كإيران أو سوريا أو لبنان، أو بحركات أخرى كحركة حماس أو الجهاد الإسلامي أو حزب الله.

■ **لك موقف نقدي مدروس من أطروحة صدام الحضارات.. نحن بحاجة إلى فهم تصورك البديل للمواجهة بين الغرب والشرق، أو الشمال والجنوب إذا شئت. وألا ترى أن ما يجري الآن ينطوي على برهنة على صحة نظرية هانتنغتون؟**

غسان سلامة: في الحقيقة أنا على جدل مع هانتنغتون منذ نشوء نظريته. لقد تقابلنا أكثر من مرة في صراع أفكار وليس صراع حضارات معه في أكثر من منطقة، لذلك فهو يعرفني وأنا أعرفه، ومن دون أي شك يحتل فكره اليوم صدارة الأفكار الدولية، وعليّ أن أعترف بأن أفكاره باتت منتشرة إلى حد كبير، وهي منتشرة في الثقافات الأخرى أكثر من انتشارها داخل الثقافة الغربية نفسها، بمعنى أن هانتنغتون شعبي في أوساط المثقفين العرب أكثر منه شعبية في أوساط المثقفين الفرنسيين على سبيل المثال، لأنه يلقى هوى عند كثيرين من المثقفين العرب.

رُدّ على نظريته عند صدور مقاله الأول عام ١٩٩٣، وعند صدور كتابه عام ١٩٩٤ بطرق مختلفة للغاية، وكانت الفكرة الأكثر رواجاً عند منتقديه انه يقول بحتمية صراع الحضارات بينما المطلوب والمرجوّ والممكن هو الحوار في ما بينهم، فالتحاور هذا هو البديل من صراع الحضارات. في الواقع أنا لم أقتنع يوماً لا بنظرية صراع الحضارات ولا بتحاورها، لأنني أذهب أبعد ربما من غيري في عملية نقد صراع الحضارات، أنا أقول إن الحضارات ليست مؤهلة لأن تكون فاعلة دولياً أو لاعباً دولياً، أنا أفهم أن الأفراد يتحاورون أو يتصارعون، الجماعات تتحاور وتتصارع، كذلك الدول، ولكن الحضارات ليست لاعبة على الساحة الدولية لكي تكون قادرة على لعب دور المحاور أو المصارع.

الحضارات هي منبع لقيمنا، لأفكارنا، لأذواقنا في الأكل والملبس وما شابه، لمسلكنا في الحياة، لطريقة عيشنا، لتنظيمنا العائلي والاجتماعي.. هذه هي الحضارة، ولكن الحضارات ليست بديلاً عن الدول، ولا عن الجماعات، ولا عن الأفراد، وبالتالي أنا لا أعتقد أن الحضارات موجودة في الأساس كلاعب دولي لكي تتصارع، لذلك نقدي لهذه النظرية هو أكثر جذرية من مجرد أن ندعو لحوارها بدلاً من صراعها. أنا لا أعتقد أن جورج بوش مفوض بأن يمثل الحضارة الغربية، ولا أعتقد أن هناك من فوض أسامة بن لادن كي يتحدث باسم الحضارة الإسلامية ويحارب في سبيلها، وبالتالي لا أعتقد أن هناك آليات داخل مختلف الحضارات العالمية تسمح بأن يقف من يمثلها أو يتحدث باسمها كلاعب دولي، وبالتالي فإن تحجير أو تكليس الثقافات والحضارات بوصفها لاعبة دولية مثلها مثل الدول والجماعات، برأيي أمر خاطئ. ثم إن هناك حججاً تاريخية واضحة، فإذا أنت نظرت إلى تاريخ الشعوب لوجدت أن النزاعات داخل الحضارات هي أكثر عدداً، وأقوى تأثيراً من

الصراعات بين جماعات تنتمي إلى حضارات مختلفة، فأخطر حروب المنطقة هي الحرب العراقية ـ الإيرانية التي كلفت ما لا يقل عن ٤٠٠ ألف قتيل، هذه حرب ضمن الحضارة الإسلامية. والحرب التي أدمت أوروبا لحوالى قرن من الزمن هي حرب بين المانيا وفرنسا (في الأعوام ١٨٧٠ و١٩١٤ و١٩٣٩) فهذه الحرب تمت داخل الحضارة نفسها.

لكن يجب علينا أن ننتبه إلى أن هناك موجة دائرة حالياً و«موضة» واسعة جداً في هذا الشأن، فعندما يقول هانتنغتون بصراع الحضارات، وعندما يدعو الرئيس الإيراني محمد خاتمي لحوار الحضارات، فهما بالنهاية ينتميان إلى المدرسة نفسها التي تقول إن الحضارات هي لاعبة على الساحة الدولية. إذ لا يوجد دولة تستطيع تمثيل حضارة معينة، تماماً كما لا يمكن للولايات المتحدة اختزال الحضارة الغربية. وأتصور أن شيوع مثل هذه الموضة حالياً، القائلة بصراع الحضارات أو حوارها، نهايتها إلى زوال. أنا لا أعتقد أن هذه الفكرة لها مستقبل، وهناك بعض الدراسات التي أتوقع لها مستقبلاً أفضل كثيراً من فكرة هانتنغتون ودعوات حوار الحضارات، وهي الدراسات التي تقول إننا نمر بمرحلة انتقالية في النظام العالمي، وان الأفكار الرائجة اليوم قد تكون ماتت في نهاية المرحلة الانتقالية، وهي مرحلة تستهلك الكثير من النظريات التفسيرية الواحدة تلو الأخرى، فتنتعش حيناً لتذبل وتموت بعدها، وان ما يحصل حالياً هو شيء جديد لم نصل بعد، لا نحن ولا الأمريكان أو الأوروبيون، إلى عملية تأطيره في نظرية تفسيرية مقنعة لها سبل العيش الطويل.

ان الثورة الصناعية أخذت نحو مئة عام لكي تكتمل مفاعيلها، بينما ثورة الاتصال الحالية غيّرت في العالم خلال جيل واحد ما احتاجت الثورة الصناعية لإنجازه نحو أربعة أو خمسة أجيال. نحن في عز هذه الثورة الآن، وبالتالي يُعد مقامرة أن نطرح نظرية متكاملة لها سبل العيش، تأخذ بالاعتبار حركة العولمة الحالية وتنظّر لها على المدى الطويل، ولذلك فإن معظم الأفكار المتداولة حالياً هي أفكار ليس مكتوباً لها العيش على المدى الطويل.

ما نراه في الواقع هو أن حركة العولمة تؤدي إلى نتيجتين متكاملتين ومتناقضتين: تنتج مستوى أعلى بكثير من الاندماج على المستوى الاقتصادي والمالي، ومستوى أعلى بكثير من التفتت على المستوى السياسي والاجتماعي. بمعنى انه إذا تأثر اقتصاد ما في العالم فكل الاقتصادات ستتأثر، فإذا هبطت بورصة نيويورك، تلحقها بورصة طوكيو، وإذا تعثر الاقتصاد البرازيلي فإن اقتصادات العالم كلها ستتأثر، وإذا زاد سعر النفط أو قلّ فإن الناتج العام سيتغير، وإذا حصلت حادثة ضد السياحة في الأقصر بمصر فإن كل السياحة في شرق المتوسط ستتأثر لفترة طويلة.. أي أن هناك ترابطاً واندماجاً متزايداً ونراه بوضوح في حركة الرساميل. فهذه الرساميل العالمية اليوم بدوية، تنتقل بعشرات المليارات خلال فترة ساعات أو أيام من بلد إلى آخر، الأمر الذي يشير إلى ارتباط واندماج مبتكر لم تشهده الكرة الأرضية في تاريخها كله بين مختلف اقتصادات العالم وماليته. لكن في الآن نفسه هذا المنتج الاندماجي في المجالين الاقتصادي والمالي يؤدي في المجالات السياسية والاجتماعية والفكرية إلى مستوى أعلى من التفتت. فهناك حوالى خمسين دولة في العالم بحالة من التفتت في مجتمعها أو في سلطتها المركزية، أو في مدى سيطرتها على أرضها الوطنية. هناك أيضاً تفتت في الأخلاق، وتشققات حقيقية في بنية الدول الحديثة، لذلك ما نراه هو ظاهرة عالمية متناقضة.

خذ مثلاً موضوع القمر الفضائي، منذ خمس سنوات، فقط منذ خمس سنوات، كان القمر الصناعي في الأساس أمراً له هدف عسكري، وبالتالي كان مجالاً للانفاق. كانت الدول

القادرة والطموحة عسكرياً هي التي تطلق الأقمار الصناعية بهدف مراقبة خصومها في العالم. ولكن منذ خمس سنوات حصل تطور تكنولوجي رهيب، بمعنى أن الاتصالات الهاتفية والنقل التلفزيوني انتقل إلى الأقمار الصناعية، فأصبحت وظيفة هذه الأقمار المدنية أكبر بكثير من وظيفتها العسكرية، وبالتالي بدلاً من أن تكون هذه الأقمار مجالاً للانفاق العسكري صارت مجالاً مربحاً مادياً، لذلك كان هناك عدد قليل من الأقمار الصناعية التي تدور حول الكرة الأرضية وازدادت في الفترة الأخيرة وأصبحت ٦٠٠ قمر صناعي، وستصبح بعد حين، خلال فترة خمس أو ست سنوات ٢٠٠٠ قمر. هذه الثورة ستغير إلى حد كبير عدداً كبيراً من الأمور التي اعتدناها، هذا يعني أن كل المفاهيم القديمة باتت مهددة، بدءاً بمفهوم السيادة السياسية، وأعتقد أننا وصلنا اليوم إلى وضع، إذا كنت تريد أن تدافع عن سيادتك فيجب أن يكون ذلك بامتلاكك قمراً صناعياً، فمن دون قمر صناعي أنت لست سيداً، لأن الطرف الثاني قادر على أن يتابع حركاتك يومياً بأدق التفاصيل، ليس فقط تحركاتك العسكرية، بل عدد المتظاهرين في تظاهرة تخرج في عاصمتك، والقمر الصناعي يستطيع أن يقول للطرف الآخر كم من المتظاهرين من الرجال ومن النساء وبأي وتيرة يسيرون في الشوارع، وما هي ألوان الثياب التي يرتدونها، وهل هم ملتحون أو غير ملتحين. فأين السيادة إذا من هذا؟ وأعطي مثلاً آخر، كنا نعتقد أن السيادة هي فقط تحرير الأرض، صحيح أن تحرير الأرض مهم، ولكن ألا تعتقد معي أن السيادة السياسية في عقد العولمة لا تقوم إذا لم تكن لديك بنية اقتصادية متينة، لقد أصبحت السيادة مرتبطة بقوة ومتانة ببنيتك الاقتصادية بقدر ما هي مرتبطة، وربما أكثر، بمدى سيطرتك على الأرض في الوطنية، لأنه إذا أنت دخلت العولمة، وكلنا داخلون بها شئنا أم أبينا، وبنيتك الاقتصادية هشة، فإن سيادتك تذبح على باب صندوق النقد الدولي والمنظمات الاقتصادية الدولية الأخرى.

■ **يبدو في الأفق أن الفلسفة السياسية غربت بصورة تكاد تكون كاملة ما عدا استثناءات قليلة، فهل تعتقد أن هذا الأمر نتيجة هيمنة العولمة ومضامينها الاقتصادية، أو نتيجة فقدان الثقة بالماركسية بعد انهيار النظام السوفياتي، والسؤال هنا هو بطبيعة الحال: هل توافق القائلين بأن الماركسية لم تمت بموت التجربة السوفياتية كفلسفة سياسية، أو كمنهج فكري ؟ أم ترى أنها انتهت كتجربة سياسية، أو منهج فكري؟**

غسان سلامة: الماركسية هي جزء لا يتجزأ من تاريخ الفلسفة الأوروبية، وبالتالي العالمية، فإذا راجعنا تاريخ الفكر في القرنين الماضيين، من دون شك يمكن اعتبار المدرسة الماركسية كتنويعة من تنويعات الفكر الهيغلي، وبالتالي من الصعب أن يقال إن مدرسة بكاملها حكمت إلى حد كبير نحو ١٥٠ سنة من تاريخ الفكر الأوروبي والعالمي قد انتهت، لا أعتقد ذلك. لكن من دون شك إن التطبيقات العملية والسياسية والاقتصادية للفكر الماركسي تشهد في المرحلة الحالية كسوفاً كبيراً، وبرأيي طويلاً، ومن دون أي شك فإن هذا الابتعاد، مرتبط إلى حد كبير بما يمكن اعتباره قصور التجارب العملية المنبثقة أو المستلهمة لهذا الفكر عن أن تؤدي إلى تجارب إنسانية تعتبر اليوم مفقودة.

ماذا حل مكان ذلك ؟ في الواقع أن النصف الثاني من القرن العشرين تحكم فيه اعتباران، برأيي، الاعتبار الأيديولوجي المنبثق من الثورة البلشفية والذي استنهض فكراً أيديولوجياً معاكساً قادته الولايات المتحدة وعدد من الدول الأوروبية، وأيضاً الاعتبار

الاستراتيجي الذي هو قانون الاصطفاف الأساسي في النصف الثاني من القرن العشرين بين معسكرين إلى حد كبير.

إن ما نراه منذ نحو عشر سنوات، أي منذ انتهاء الحرب الباردة، هو أن هذين المعيارين قد تناثرا، فالمعيار الأيديولوجي بات هامشياً بسبب ما يمكن اعتباره انتصاراً لفكر اقتصاد السوق في الحرب الباردة. والمعيار الاستراتيجي أيضاً تأثر سلباً بعدم قيام قطب حل مكان قطب الكتلة الاشتراكية بمواجهة الكتلة الأطلسية، والسؤال هو: ماذا حصل على المستوى الفكري؟

هنا اعتقد أن عنصر الثقافة والحضارة دخل بقوة في تفسير التاريخ البشري وعاد إلى الصدارة، وانما من خلال مجموعة من النظريات الفكرية التي هي اليوم في صدارة الفكر العالمي، فالعامل الثقافي كعامل تفسيري لتاريخ البشرية، والذي كان مغيباً إلى حد كبير في الفكر الماركسي، وفي الفكر الليبرالي أيضاً، دخل في الواقع كل المجالات الإنسانية، فدخل الاقتصاد، ذلك أن نظرة سريعة إلى الاقتصاد العالمي تشير إلى أن القطاعات الأكثر نمواً في الاقتصاد العالمي هي تلك المرتبطة بالعنصر الثقافي، ولا سيما ما يسمى باقتصاد المعرفة واقتصاد الترفيه، وهما القطاعان الأكثر نمواً حالياً في الاقتصاد العالمي، ويمكن القول ان الاقتصاد العالمي عرف حقباً عديدة متتالية في ما يخص القيمة المضافة، إذ إن هذه القيمة المضافة كانت تتأتى في الفترة الأولى من الزراعة، الأمر الذي يفسر نشوب الحروب داخل أوروبا على الحدود والمناطق الزراعية، وانتقلت في مرحلة ثانية إلى القطاع الصناعي، مما يفسر إلى حد كبير خروج الاستعمار بحثاً عن المواد الأولية، وعن أسواق كبيرة في العالم، وانتقل في القرن العشرين إلى اقتصاد الخدمات، واليوم في مرحلة رابعة، يقوم على ما يمكن تسميته باقتصاد الخبرات، أي **المعرفة**، وبالتالي فإن العامل الثقافي يؤدي دوراً أساسياً في الاقتصاد حقيقة.

إن هذا التحول في آليات الاقتصاد العالمي أدّى في الواقع إلى نشوء نظرية تتكامل يوماً بعد يوم لتربط النمو الاقتصادي بالعنصر الحضاري أو الثقافي. وقد عبّر عنها أوضح تعبير ديفيد لانديس (David Landis) منذ نحو سبع سنوات في كتاب شهير رأى فيه أن النمو مرتبط إلى حد كبير بمستوى الحضارة، وبنوع الثقافة التي تهيمن على مجتمع معين. وهذا الكتاب في الحقيقة أطلق فكرة التفسير الثقافي للنمو الاقتصادي، حيث بات مدرسة قائمة بذاتها حالياً في العالم. ودخل العامل الثقافي أيضاً مضمار السياسة، وليس فقط إلى الاقتصاد، ذلك أن نحو مئة وخمسة عشر نزاعاً نشبت في السنوات العشر الأخيرة في كل أنحاء العالم، الجزء الأكبر منها حروب أهلية قائمة على الاختلاف اللغوي أو الثقافي أو الإثني، أو العرقي، أو القبلي، وهذا التطور في غاية الأهمية. وأنا لا أقول إنه لم تكن هناك حروب من هذا النوع في السابق، ولكن كانت هناك حروب أخرى أيضاً، فالحرب الباردة كانت قائمة على الخلاف الايديولوجي. والعديد من الحروب الأهلية، كالحروب اليونانية، أو الحرب الأهلية الأندونيسية، أو الحرب الأهلية في نيكاراغوا، كانت حروب قائمة على معايير أيديولوجية، لكن الحروب الجديدة التي نشبت في البلقان، أو في منطقة البحيرات الكبرى في أفريقيا، أو في آسيا الوسطى، أو في أفغانستان، بعد انسحاب الجيش السوفياتي منها ، كل هذه الحروب لم تكن مبنية على أسس أيديولوجية، وإنما على أساس الانتماء، بمعنى أن المجازر التي حصلت في منطقة البحيرات الكبرى، في بلد واحد هو الكونغو الديمقراطي، ربما أسفرت عن ثلاثة ملايين قتيل في السنوات العشر الأخيرة. هؤلاء القتلى قتلوا بسبب

انتمائهم العرقي أو القبلي، والشيء نفسه في بوروندي ورواندا حيث سقط نحو مليون بشري خلال فترة أسبوع بأبشع الوسائل على أساس انتماء قبلي، والشيء نفسه بالنسبة إلى البلقان، هذه النزاعات لم تكن قائمة على أساس أيديولوجي بين يسار ويمين، أو بين مؤيد للشرق ومؤيد للغرب، إنما كانت قائمة على أساس مجازر ترتكبها جماعات متحكمة. إذن دخل العنصر الثقافي في تشعيب النزاعات، وهذا الأمر مثير للانتباه خصوصاً أن هناك تناقضاً صارخاً بين الأسلحة العصرية المكدسة في ترسانات الدول الكبرى التي لا تستعمل وكلفتها مليارات الدولارات، وهذه المجازر الجارية في كل أنحاء العالم التي يسقط فيها ملايين القتلى، ولكنها تجري بأشد الوسائل العسكرية بدائية.

هنا أيضاً كما حصل في الاقتصاد، تطور على الأرض أدّى إلى تطور فكري، بمعنى أن عدداً من النظريات قام ليفسر هذا الأمر وفق تفسير حضاري، فنشأت نظرية صراع الحضارات كما عبر عنها هانتنغتون، ونشأت نظريات مماثلة، ولا سيما في العالم الإسلامي، تقول بانتشار الصراعات الدينية، وبدا أحياناً كثيرة وكأن نظرية هانتنغتون التي نشأت عام ١٩٩٣ تلقى مزيداً ومزيداً من التطبيق في أنحاء العالم كافة، لأنها تمثل ما يمكن تسميته بـ «عودة إلى القرون الوسطى»، وما يمكن اعتباره واقعياً نوعاً جديداً من أنواع العنصرية.

إنما في القرن العشرين، وفلسفة الأنوار قبل ذلك، كانت الاختلافات الفكرية هي التي تؤدي إلى النزاعات. كنا نختلف ليس كمسلم ومسيحي، أو كأبيض وأسود، أو لاختلاف اللغات، والانتماء إلى قبيلة مختلفة. كان الخلاف قائماً على أساس الاختلاف بالرأي، ولا أنظر إلى الأمور بالنظرة نفسها التي ينظر الآخر إليها بها. النزاعات الناشبة في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين قائمة على فكرة أنني ضدك ليس لأنك تفكر بطريقة مختلفة، ولكن لأنك تنتمي إلى جماعة مختلفة، وهذا تماماً ما كان المحرك الأساسي للحروب في القرون الوسطى، وليس في قرون الحداثة في القرنين التاسع عشر والعشرين، وبالتالي فإن ما هو حاصل على الأرض، كما النظريات التي تعبر عنها، إن كانت تصريحات أسامة بن لادن، أو كتابات هانتنغتون، كلها تشير إلى عودة أفكار القرون الوسطى، وإلى نوع من العنصرية الجديدة القائمة على التفرقة العنصرية على مستوى عالٍ، مع نوع من الابارتهايد العالمي، حيث تنطلق الفكرة من أنه من الصعب أن يلتقي اثنان بالرأي أو بالمصلحة إذا كانا ينتميان إلى جماعتين دينيتين أو طائفيتين أو لغويتين أو قبليتين مستقلتين.

من هنا فإن العامل التقاني الذي كان مهمشاً في عصر الأنوار صار في جوهر الأمور الاقتصادية، والسياسية الأمنية، وبالتالي دخلت الثقافة من خلال الكسر والخلع، بالقوة إلى الساحة الدولية، إلى ساحة النزاعات، كما إلى ساحة الإنتاج الاقتصادي والنمو الاقتصادي، ورافقت النظريات الفكرية هذا التطور، بحيث ان الذي يهيمن على الفكر الاقتصادي اليوم هو نظريات مثل نظريات ديفيد لانديس التي تربط النمو الاقتصادي بالتطور، والنظريات التي تهيمن على الفكر هي النظريات المرتبطة باعتبار العامل الثقافي عاملاً أساسياً في النزاعات كنظريات هانتنغتون مثلاً.

ويأتي فوكوياما، وهو ثالث الثلاثة بعد هانتنغتون ولانديس، كي يطرح فكراً هو مزيج من الإثنية، إذ يعتبر أن التاريخ قد انتهى بفترة سيطرة ايديولوجيا السوق على ايديولوجيا السوق المبرمجة، أو الاقتصاد المبرمج، ويعتبر من ناحية أخرى أن مستوى النمو المتفاوت في

الرأسمالية سببه العناصر الثقافية، بمعنى أن البلدان والمجتمعات التي ما زالت تقوم على ثقافة الثقة داخل العائلة، وداخل الرأسمال العائلي هي أكثر تخلفاً من التي تقبل بالفرد كفرد، وتدخله كعنصر مساهم في أي شركة أو أي مشروع اقتصادي. إن كان ديفيد لانديس، أو هانتنغتون، أو فوكوياما، وهي الأسماء الأكثر تأثيراً هذه الأيام في الساحة الثقافية، كلها أسماء تشير إلى الأمر نفسه، وهو اعتبار العامل الثقافي عاملاً أساسياً بتطور القوى أو تخلفها، بنمو الاقتصادات أو تعثرها، كما بنشوب النزاعات أم بالتواصل نحو حلولها، الأمر الذي يعني أن الفراغ الذي تركه انحسار الماركسية لا يطال الماركسية فقط، كما يعتقد الكثير من الماركسيين، إنما يضرب بالأساس ما يسمى بفلسفة الأنوار التي تنتمي إليها الماركسية، كما تنتمي إليها الهيغلية أو المدارس الأخرى، يضرب بالأساس الفكر الذي قامت عليه فلسفة الأنوار، بمعنى فلسفة الفردية، فلسفة النمو الرأسمالي، وفلسفة تهميش العنصر الثقافي، هذه الأفكار كلها حالياً وضعت جانباً، ونعيش في شيء جديد، جزء منه يشير إلى ماضٍ سحيق، ماضي الخلافات العشائرية والقبلية، وإنما على مستوى عالمي، وجزء جديد منه يشير إلى ما يسمى اليوم بـ «ما بعد الحداثة». نحن في مرحلة قد تطول أو تقصر، يهيمن فيها الانبهار بالعامل الثقافي كعنصر أساسي على الفكر الاقتصادي، وعلى الفكر السياسي في العالم، ويغذيه مسلك الجماعات والأفراد. هذا الأمر يدعو إلى التفكير لأنني أرى كثيراً من المفكرين العرب يدخلون في هذا السياق عن وعي، أو عن غير وعي، ويظهرون أحياناً وكأنهم يتبنون أفكار خصومهم دون أن يدركوا خطورتها. هذا الفكر ليس فكر العولمة. فكر هانتنغتون مثلاً هو فكر ما بعد العولمة، فهانتنغتون على عكس فكر العولمة لا يدعو بالتبشير لفكر اقتصادي وسياسي واحد في العالم، ولا يدعو إلى حرية انتقال الأشخاص والأفكار والسلع والرساميل، وهي حرية متنوعة في أساس العولمة، بل هو على العكس من ذلك يضع نفسه في مرحلة ما بعد العولمة، في فكر يقول بأن على الغرب أن يعيد تنظيم نفسه كنوع من القلعة يدافع فيها عن نفسه، فلا يسعى لتصدير أفكاره وأنظمته السياسية والدستورية إلى المجتمعات الأخرى، كما هي العولمة، بل يدعو إلى موقع دفاعي في الغرب، لكي يحافظ الغرب على قيمه وأنظمته مع مستوى أقل من التفاعل مع الحضارات الأخرى، إذ أن هانتنغتون يضع نفسه في مرحلة ما بعد العولمة، وليس في العولمة، وهذا الجنوح الذي نراه، والذي تعبر عنه الإدارة الأمريكية الجديدة، فجميعنا يعرف أن الإدارة الأمريكية السابقة التي حكمت أمريكا بين عامي ١٩٩٣ و٢٠٠٠ كانت شديدة الحماسة للعولمة، وهي تنتمي إلى نوع من المبشرين البروتستانت في كل انحاء العالم يدعون للعولمة، وحل النزاعات بطريقة سلمية، وإلى تبني الأفكار نفسها ليس فقط في المجال السياسي والاقتصادي وإنما أيضاً في المجال الاجتماعي والأخلاقي.

أما الفكر الجديد، فكر هانتنغتون، الذي هو أقرب إلى الإدارة الجديدة، فيدعو إلى شيء مختلف، مبني على فكرة أن عملية التحديث في الحضارات الأخرى ولا سيما في الحضارة الإسلامية، أو في الحضارة الصينية، أو في الحضارات الأفريقية، عملية التحديث خلال القرن الماضي، القرن العشرين، كانت إلى فترة من الزمن تمشي قدماً مع فكرة التغريب، كانت فكرة التحديث تمشي يداً بيد مع التغريب، لذلك كان الغرب يؤيد فكرة التحديث في كل الحضارات الأخرى، لأن التحديث كان يتم بمزيد من التقارب الثقافي والحضاري مع الغرب، فكان التحديث الاجتماعي والاقتصادي يؤدي إلى موقف مؤيد ومتقارب للغرب على المستوى السياسي، ولكن يقول هانتنغتون واتباعه بأنه في فترة من

الزمن، ربما في الخمسينيات والستينيات حصل انفصام بين التحديث والتغريب، وصارت المجتمعات تأخذ من الغرب فكرة التحديث، ولكنها تناهضه على المستوى السياسي، وتحاول أن تحارب بسلاحه، وبالتالي ما هو ضمني في هذه المقولة هو أن الغرب لم يعد يرى من مصلحتة تشجيع الحداثة في الحضارات الأخرى، لأنها باتت سلاحاً ضده بعد أن كانت سلاحاً معه. هذه هي الفكرة الضمنية التي تؤدي إلى ما يمكن تسميته بفكرة ما بعد العولمة الذي هو فكر يتطلع إلى المستقبل من جانب، ولكنه يستقي بعض أفكاره من ممارسات ونظريات القرون الوسطى، هو مزيج من الارتداد إلى الصراعات الدينية والقبلية، كما عرفها العالم حتى مرحلة الحداثة في القرن الثامن عشر، وهو من جانب آخر تطلع لإعادة تكوين الغرب كقلعة متماسكة بوجه الحضارات الأخرى.

■ **لك معرفة واسعة بدور مصانع الأفكار (Think Tanks) في الغرب، ومن المؤكد أن منصب وزير الثقافة في لبنان قد فتح أمامك نوافذ أوسع على مصانع الأفكار في الوطن العربي، بل الواقع أنك عملت بواحد من أهمها في بيروت في أواخر السبعينيات (مركز دراسات الوحدة العربية)، كيف ترى أهمية دورها عربياً على الصعد السياسية والثقافية والفكرية بشكل عام؟**

غسان سلامة: الحقيقة ان ما يسمى بـ «مصانع الأفكار» ربما قد ولى عصرها الذهبي، لأنه في الغرب على الأقل، كان لها دور كبير جداً في العقود المنصرمة، ولكن هذا الدور بدأ يتضاءل تدريجياً في السنوات الأخيرة. والسبب في ذلك هو التغير الجوهري الذي أدخلته التكنولوجيا على وسيلة التواصل، فحتى فترة قريبة من الزمن كانت فكرة مصانع الأفكار قائمة على جمع مجموعة من العقول في مكان واحد لكي يؤدي النشاط الفردي لكل واحد منهم إلى ناتج جماعي يصدر عن مصانع الأفكار، ويكون أكثر من مجرد جمع للعمل الفردي لكل واحد منهم، لأن تجميع مجموعة من البشر والعقول في مكان واحد وتشجيع التواصل بينهم يؤدي إلى نتاج أعلى مستوى من مجرد عمل فردي لكل منهم في مكانه.

لكن ثورة الاتصالات سمحت بالتواصل السهل والقوي واليومي بين شخصين موجودين على طرفي الكرة الأرضية، فيمكن أن أكون أكثر تواصلا اليوم مع شخص مقيم في أوريغون أو في طوكيو من تواصلي مع شخص مقيم في البناية الملاصقة لي. ثورة الاتصالات لم تعد الحاجة معها، كما كانت في السابق، لتواصل مموضع جغرافياً في المبنى نفسه، أو في المكان نفسه، لأن الانترنت يسمح لكل المهتمين بالموضوع الصيني (مثلاً) بأن يتواصلوا عبر الكرة الأرضية حتى لو كانوا ينتمون إلى لغات وبلدان مختلفة وفي مدن مختلفة. وأصبح يحل محل المكان شبكة الأفكار، فمصنع الفكر كان يقوم على جمع العقول في مبنى واحد، وشبكة الفكر تقوم على التواصل الطبيعي والدائم بين أناس يهتمون بالفكرة نفسها، أو المجال نفسه أينما كان مكان إقامتهم. لذلك أتصور نفسي بعد فترة وقد انكفأت إلى قريتي وسكنت فيها وتواصلت منها مع مختلف الناس الذين يفهمون بالمجالات التي اهتم بها.

إن مصنع الفكر يذوب حالياً أو يتلاشى لتحل مكانه شبكة الفكر، أي الشبكة التي تضم أناساً من مختلف اللغات والأديان والأعراق، وخصوصاً القارات، إنما في المجال عينه. هذا هو التطور الحاصل، وبالتالي أنا لا أدعو على الأطلاق لأن نذهب إلى مكة والناس راجعين منها، ولا أدعو إلى قيام مصانع أفكار في الوقت الذي أضحى فيه هذا المفهوم قديماً وقد تجاوزته ثورة الاتصالات □